مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد 7 العدد 2 / ديسمبر 2021
ص ص 162–169

آليات قراءة التراث البلاغيِ: الرُّؤية والمنهج

Mechanisms for Reading Rhetorical Heritage: Vision and Approach

عيسى قيزة
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة الجزائر
a.guiza@centre-univ-mila.dz

الاستلام: 2021/04/30 القبول:2021/06/14 النشر: 2021/12/31

ملخص:

اهتمَّ اللغويون في العصر الحديث والمعاصر بالتُّراث اللغويّ[المعجميّ - والنَّحويّ والبلاغيّ...] قراءة أو إعادة للقراءة بغية كتابة تاريخه وتقديمه في صورة جديدة تقوم على أساس استرجاع هذا التُّراث لمكانته بحمله على المنظور الجديد في محاولة جادة لبناء الحاضر على أصول الماضي. وقد تأثر الدَّارسون في قراءتهم للدَّرس البلاغيّ بمقولات المنهج التَّاريخيّ، و بالدَّرس اللسانيّ الحديث؛ لذا ظهرت عدَّةُ قراءات حاول أصحابها معاودة النَّظر في هذا التُّراث. من هنا جاءت هذه المقالة لترصد تلك القراءات مُبينةً الأسباب التي دفعت باللغويين إلى طرح تصورات لتجديد البلاغة العربيَّة، ومُجيبةً عن سؤال جوهريّ يتمثَّل في: إلى أي مدى وفقت تلك المحاولات في معالجة قصور البلاغة العربيَّة؟

الكلمات المفتاحية : البلاغة العربيَّة؛ التُّراث؛ القراءة؛ إعادة القراءة.

Abstract:

Linguists in the modern and contemporary era have paid attention to linguistic [lexical - grammatical and rhetorical... In their reading of the rhetorical lesson, the scholars were influenced by the quotations of the historical method, or by the modern linguistic lesson. Hence several readings have appeared that their owners have attempted to revisit this heritage. Hence, this article explores the fact that it monitors these readings, explaining the reasons that prompted the linguists to put forward ideas for renewing the Arabic rhetoric, and answering a fundamental question that is the extent to which those attempts to address the limitations of rhetoric have succeeded .

Keywords: Arabic rhetoric; heritage; reading ; re-reading.

1- مقدمة: مرَّت البلاغة العربيَّة بعدَّة محطاتٍ مثلها مثل باقي مجالات الدَّرس اللغويّ العربيّ (الصَّوت، الصَّرف،النَّحو، المعجم)، حيث عرفت في بعضها نضجا وقوة وهو ما نجده في العصر العباسيّ، وهنا تبوأت مكانة سامقة بين علوم العربيَّة الأخرى، وعرفت في بعضها الآخر ركودا وضعفا خاصَّة في عصر الضُّعف. حيث نُعتت بالتَّعقيد والجمود. وقد شكَّلت هذه المحطات- وكلّ محطات الدَّرس اللغويّ العربيّ- اهتماما لدى الدَّارسين في العصر الحديث. وتعالت الصَّيحات التي نادت بضرورة تجديد البلاغة العربيَّة وإعادة النَّظر فيها قراءة أو إعادة للقراءة. انطلاقا من نقاط الضُّعف والقصور. وسنورد في هذا المقال بعض آليات قراءة البلاغة العربيَّة.

إشكاليَّة البحث: للبحث مجموعة من الإشكاليات أهمُّها: ماهي أهمُّ الكتابات التي عرفتها بلاغتنا العربيَّة ؟ وما الجديد الذي قدَّمتها تلك الكتاباتِ؟

الفرضيات:- تعدُّ بلاغتنا العربيَّة كتابا مفتوحا تعدَّد قراءته بمناهجَ ورؤى مختلفةٍ.

- قدَّم اللغويون قديما درسا بلاغيًّا غنيًّا نفتخر به اليوم وغدا، وتتدارسه الأجيال، وتُعرِّف به، وتُقدِّمه في رؤى ومناهجَ مختلفةٍ.

منهجيَّة البحث: أعملنا في البحث منهجين رأيناهما كفيلين بأصالة الموضوع ومناسبتهما لطبيعته؛ وهما الوصفيُّ والمقارن؛ الوصفيُّ وهو المنهج الغالب على البحث، والمقارن وهو المنهج الخادم للمنهج الأوَّل.

2- دور حملة نابوليون بونابارت على الثَّقافة العربيَّة:

شكَّلت حملة نابوليون بونابارت(Napoleon Bonaparte)(1769- 1821) على مصر (1798-1801) البداية الفعلية لانفتاح الثَّقافة العربيَّة على الثَّقافة الغربيَّة ، و كانت إيذانا بتحولات جذريَّة عميقة مهَّدت للتَّخلص من ضائقة الاستبداد العثمانيّ[1] ، كما ساهمت في تحقيق تغيّرات مهمة لها علاقة بالجانب اللغويّ؛ إذ وضع نابليون قانونا جديدا يحكم به المسلمين غير شريعة الله، وهو ما استفز الشُّعوب العربيَّة، وعمل على تنمية الشُّعور والنَّهضة بمختلف نواحي الحياة الثَّقافيَّة والفكريَّة[2] .

ويرى رفاعة الطهطاوي (1801-1873) أنَّ السَّبب في الاهتمام بالتُّراث يعود إلى المرحلة التَّاريخيَّة التي عاشتها مصر، والتي مهدت بظهور الإحساس بأهميَّة الماضي الحضاري حيث << فتح أمام المصريين الطريق لمعرفة عظمتهم الحضاريَّة التي تبعث فيهم التَّعالي على الأتراك والاستيلاء على المماليك، بل وافتقارهم وازدرائهم>>[3]. فهذا الوضع هو ما دفع بالعربي حسب زكي نجيب محمود إلى تبني الإصلاح اللغوي، بحكم أنَّ اللغة هي وعاء الحضارة، ولأنَّ ثورة التَّجديد تبدأ من اللغة، وطرائق تدريسها واستخدامها[4] .

3- بداية قراءة التُّراث اللغويّ:

يرى حافظ إسماعيلي أنَّ البوادر الأولى للإصلاح اللغويّ شملت المعجم؛ لأنَّه أحد الأسس المكينة التي يمكن أن تنطلق منها عمليَّة الإصلاح، فقد حظي بعناية واهتمام كبيرين من خلال الاهتمام بالجانب الجماليّ للغة العربيَّة في محاولة جادة لتخليصها من رواسب عصر الانحطاط، والعودة إلى سالف عهدها، وهذا ينمُّ عن إدراك عميق لدور اللغة الفاعل في حياة الأمَّة، ومن اللغويين الذين ركزوا على هذا الجانب "أحمد بن فارس الشدياق" (1804-1887م) و"بطرس البستاني" (1819- 1883م) و" إبراهيم اليازجي" (1847-1883) و"أحمد الشرتوني"(1849-1912م) وغيرهم، الذين أولوا عنايةً كبيرةً لتنسيق المعجم، وترتيب مواده ترتيبا سهلا يسيرا، يُمكِّن الباحث من الوصول إلى المعنى [5] . ليأتيَ الإصلاح بعد ذلك مع البدايات الأولى من القرن العشرين على نقد النَّحو العربيّ، والبداية كانت بظهور كتاب (إحياء النَّحو) "لإبراهيم مصطفى" الذي أراد من خلاله البحث عن منهج جديد في تدريس النَّحو العربيّ، وفي ذلك يقول: << أطمع أن أغيّر البحث النَّحويَّ للغة العربيَّة، وأن أرفع عن المتعلمين إصر هذا النَّحو ، وأبدِّل منه أصولا سهلة يسيرة تقربهم من العربيَّة >>[6].وتعدُّ مقاربة "إبراهيم مصطفى" أوَّلَ مقاربة شاملة للتُّراث النَّحويّ العربيّ، يستمرُّ حضورها في الثَّقافة العربيَّة عند بعض الباحثين الذين سيرددون الكثير من آرائه[7]. هنا يظهر الفرق بين القراءتين فقراءة المعجم كانت إصلاحيَّة؛ الهدف منها إضافة ما لم تعرفه اللغة سابقا في معاجمها،ولم يكن متداولا على ألسنة الناطقين بها(كإضافة ألفاظ جديدة، ومصطلحاتٍ علميَّة لم تكن موجودة في المعاجم القديمة)، أما قراءة النَّحو نقديَّة تيسريَّة (كحذف بعض الأبواب النَّحويَّة). لنقول بأنَّ المعجم العربيَّ عرف إضافة، وذلك بتزويد القارئ بمجموعة من الألفاظ التي لم تكن معروفة لديه. عكس النَّحو العربيّ الذي عرف حذفا يرهق كاهل المتعلم.

4- حظ البلاغة العربية من القراءة:

جاءت قراءة التُّراث البلاغيّ متأخرةً مقارنةً بالتُّراث المعجميّ والتُّراث النَّحويّ- وهو أمر منطقيٌّ حسب رأي- فكما بدأت حركة التَّأليف بجمع المادة اللغويَّة، ثم تقعيد تلك المادة من قبل اللغويين. كذلك بدأت حركة القراءة أو إعادة القراءة بالمعجم ليليه النَّحو، وفي الأخير تأتي البلاغة "فما أشبه اليوم بالأمس" :

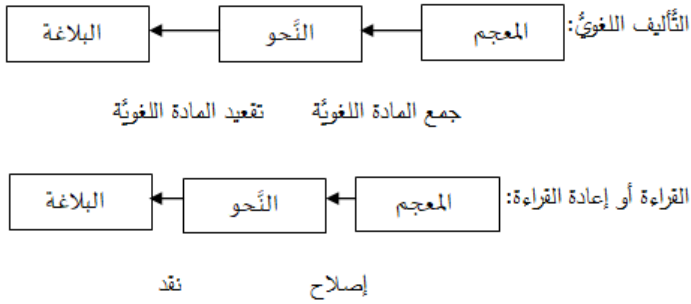

ومما شدَّ انتباهي أثناء وضعي للمخطط السَّابق، هو التَّقارب الموجود بين وضع المعجم والنَّحو عند القدماء والمحدثين؛ إذ كلُّ مادة تمَّ جمعُها لا بدَّ لها من إصلاحٍ، وكلُّ مادة تمَّ تقعيدها لا بدَّ لها غربلة ونقد.

ويمكن إرجاع قراءة التُّراث البلاغيّ إلى سببين رئيسين هما:

- زيادة وعينا بتراثنا بوضعه في سياق معرفيّ مرفود بخبرة الآخر الحداثيَّة[8].
- إفادتنا من المعارف المستعارة من الآخر، وهي معارف لا تزال غريبة –كما يرى محمود السَّعران- عن جمهور المتخصصين في المسائل اللغويَّة[9].

ونقصد بهذه المعارف"البحث اللِّسانيّ".

هذا البحث الغريب عن أبناء لغة الضَّاد وعبَّر عنهما "جابر عصفور" بقوله: النَّصُّ التُّراثيُّ في حقيقة أمره يملك حضورين؛ حضور هنا في تاريخه الخاصّ في القرن الثَّالث أو الرَّابع أو الخامس؛ حين كتب ابن المعتز أو قدامة بن جعفر أو عبد القاهر الجرجاني في علاقات تاريخيَّة محدَّدة في شروط إنتاج معرفة معينة، وحضور هنا في تاريخنا الخاصّ في القرن الخامس عشر للهجرة[10]. وفق ما قُدِّم سابقا يمكن أن نقسِّم قراءة اللغويين للتراث البلاغيّ إلى قسمين؛ قسم اهتم أصحابه بالسَّرد التَّاريخيّ، والثَّاني اهتم أصحابه بالقراءة من منظور لسانيّ:

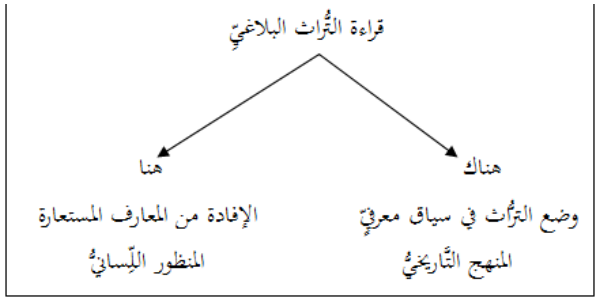

فقراءة تراثنا البلاغيّ حسب جابر عصفور تملك حضورين؛ حضور نسعى من خلاله إلى البحث فيما كتبه ابن المعتز أو قدامة بن جعفر أو عبد القاهر الجرجاني(مؤسسو البلاغة وأعلامها)، وحضور نسعى من خلاله إلى دراسة ما كتبه "ابن المعتز "و "قدامة بن جعفر " و "عبد القاهر الجرجانيُّ" دراسة لسانيَّة .

5- قراءة التُّراث البلاغيّ وفق المنهج التَّاريخيّ

بدأت قراءةُ التُّراث البلاغيّ من قبل اللغويين بدايةً تعليميَّةً تعتمد على **التَّعريف** بالتُّراث البلاغيّ للطلاب في تلك الفترة وهو ما أشار إليه "أحمد مصطفى المراغي"(1952م) حيث قال: <<طلب إلي طلبة تخصص المادة(شعبة البلاغة والأدب) في كليَّة اللغة العربيَّة من الأزهر الشَّريف

أن أكتب لهم مقالةً توضح نشأة علوم البلاغة، وتشرح الأطوار التي مرت بها منذ بدء التَّصنيف»[11] فاستجاب للطلب وألَّف كتابا بعنوان " تاريخ علوم البلاغة والتَّعريف برجالها" أمَّا عن سبب كتابته لتاريخ البلاغة فهو أن « ترشد النَّاظر فيها إلى ما طرأ من التَّحول في اتجاه أبحاث المؤلفين وتوافرهم على خدمة الكتب دون خدمة الفن ممَّا كان مدعاة لوقوف الحركة الفكريَّة في مسائل العلم الحقيقيَّة»[12]. وقد أخذ الجزء الخاصّ بالتَّعريف برجال البلاغة النَّصيبَ الأكبر من حجم الكتاب؛ وذلك راجع إلى الغاية من التَّأليف، والتي كانت عبارة عن مسح تاريخيّ ودراسةِ المؤلفات البلاغيَّة وتصنيفِ تياراتها.

ومن الدِّراسات الرَّائدة في قراءة التُّراث البلاغيّ من خلال الكتابة التَّاريخيَّة كتاب "شوقي ضيف" (1910-2005م) والمعنون بـ"البلاغةُ تطورٌ وتاريخٌ" والذي يعدُّ بحق أهم الأعمال التي فتحت المجال أمام الباحثين والدَّارسين للنُّهوض بتراثنا البلاغيّ، والتَّعريف به وبرجاله. ولم تكن غاية "شوقي" أن يكون مُقدِّما وساردا تاريخيًّا لمادة البلاغة فحسب بل حاول بوعي البحثَ عن حلقة الوصل بين فترة تاريخيَّة وأخرى ويجد لها ما يعضدها، وإبرازَ التَّرابط بين الجانب البلاغيّ والجانب الأدبيّ؛ وهو ما نجده في قوله: « ولم تكن غايتي أن أصوِّر هذا التَّاريخ لبلاغتنا فحسب، بل أيضا أن أصوِّر التَّرابط الوثيق بينها وبين أدبنا في تطورهما حتى انتهيا إلى الجمود والتَّعقيد والجفاف، وأنْ أرسم في تضاعيف هذا التَّطور الوشائجَ الواصلةَ بين كلّ بلاغيّ وسابقه ولاحقه»[13]. فدراسة أحمد مصطفى المراغي للبلاغة كانت دراسة تاريخيَّةً غير ترابطيَّة؛ بمعنى أنَّه لم يربطْ بين المراحل التي مرَّت بها البلاغة العربيَّة، ولم يُشرْ إلى ما أضافه اللاحق للسَّابق. وهو ما نجده عند شوقي ضيف التي كانت دراسته دراسة تاريخيَّة ترابطيَّة.

ومن الأعمال التي يمكن إدراجها في هذا النَّوع من القراءة العمل التي قدَّمه "بدوي طبانة" (1914-2000م) الموسوم بـ" البيان العربيُّ دراسة في تطوّر الفكرة البلاغيَّة عند العرب ومناهجها ومصادرها" ونشره سنة(1956) حاول من خلاله دراسة تطور فكرة البلاغة عند العرب، والوقوف على مناهجها ومصادرها الكبرى. وهدف الباحث من عمله هذا هو تتبع الحقائق البلاغيَّة في مصادرها الأصليَّة معتمدا على الفحص والاستقراء مُقَيِّما لها بالكشف عن ما لها، وما عليها، مبينا مبعثَها وجدوَاها، وفاحصا عن منهجها وفلسفتها وعن صوابها وخطئها[14]. ويرى أنَّ طبيعة هذا البحث تقتضي أن يكون منهجه تاريخيًّا، لأنَّه يقوم على دراسة تطور الفكرة البلاغيَّة، إلا أنَّ الدراسة الفنيَّة لم تفارقه، فقد أبرزت قيمة البلاغة وفنونها وآثارها في قوة المعنى، أو في صورة ذلك المعنى[15].

ومن الدِّراسات التي نظمُّها إلى قراءة التُّراث البلاغيّ وفق المنهج التَّاريخيّ الدِّراسةُ التي قدَّمها "علي عشري الزايد" الموسومة بـ" البلاغة العربيَّة- تاريخها، مصادرها، مناهجها- "والتي نشرت سنة 1977 والشَّيء الجديدُ الذي احتوته هذه الدِّراسةُ هو تناول اللغويُّ للتَّأليف البلاغيّ على مستويين «أولهما تاريخيٌّ يقوم على تتبع هذا التَّطور في مرحلته الأساسيَّة، منذ بدأت البلاغة العربيَّة أفكارا وملاحظاتٍ عامةً متناثرةً على هامش العلوم الأخرى، حتَّى استقرَّت علما متميِّزا، مستقلا بمؤلفاته ومؤلفيه.... أمَّا المستوى الثَّاني؛ فهو مستوى فنيٌّ، يقوم على رصد الجانب الفنيّ في مسار التَّأليف البلاغيّ من خلال استخلاص معالم منهج البحث، وطرق التَّناول العلميّ التي عرفها حقل التَّأليف في البلاغة العربيَّة»[16]. وقد حاول الزايد البحث عن منهج التَّأليف البلاغيّ عند العرب، وخلُص إلى أنَّ الدَّرس عرف في تطوره أربعةَ مناهج وهي: المنهج التَّجميعيُّ (آثار البيان والتَّبيين) والمنهج الانطباعيُّ(الكامل للمبرد) والمنهج التَّحليليُّ الفنيُّ(كتابات عبد القاهر الجرجاني) والمنهج التَّقنينيُّ المنطقيُّ(مفتاح العلوم للسَّكاكيّ)[17]. ليصل "الزايد" إلى نتيجة مفادها أنَّ المنهج العلميَّ الدَّقيق لم يعرفه البحث البلاغيُّ عند العرب« إلا في المرحلة الثَّالثة؛مرحلة استقرار البلاغة واستقلالها، حيث تقاسم المؤلفات البلاغيَّة في هذه المرحلة منهجان متقابلان من مناهج البحث البلاغيّ، يبرز أولهما في مؤلفات عبد القاهر الجرجاني ومن نهج نهجه، بينما يتَّضح الثَّاني في مؤلفات السَّكاكيّ ومدرسته البلاغيَّة، وإذا كان هذان المنهجان قد حققا صورتهما النَّموذجيَّة في مؤلفات عبد القاهر

والسَّكاكيّ ومدرستيهما، فإنَّ بذورهما الأولى ترجع إلى المرحلة السابقة على مرحلة عبد القاهر والسَّكاكي <<[18].

لنأتي في الأخير ونقول إنَّ البلاغة العربيَّة قد عرفت قراءة تاريخيَّة - **"ويطلق عليها محمد العمري مدرسة التَّمهيد، وهي مدرسة قائمة الذات على حدِّ تعبيره"**[19]- وقامت على يدِّ كلّ من "أحمد مصطفى المراغي" و"شوقي ضيف" وهذا راجع إلى طبيعة العمل المقدَّم، فكلٌّ من العملين المقدَّمين من طرف أحمد مصطفى المراغي وشوقي ضيف موجه إلى الطلبة؛ وهذا ما ينزع بالعمل إلى الطبيعة التَّعليميَّة التَّعريفيَّة. عكس الأعمال التي جاءت بعدهما. حيث عرفت منهجا آخر بالإضافة إلى المنهج التَّاريخيّ ألا وهو المنهج الفنيُّ على يد كلٍّ من بدوي طبانة وعلي عشري الزايد وهو راجع إلى طبيعة عمل كلّ منهما؛ حيث وجهت تلك الدِّراسات أولا وأخيرا إلى اللغويين والمشتغلين في حقل البلاغة.

ويظهر الفرق واضحا في عناوين الكتب؛ حيث جاءت كالآتي:

عنوان الكتاب	الكلمة المبئرة
- تاريخ علوم البلاغة والتَّعريف برجالها - البلاغة تطور وتاريخ	- تاريخ - تاريخ
- البيان العربيُّ دراسة في تطور الفكرة البلاغيَّة عند العرب ومناهجها ومصادرها - البلاغة العربيَّة تاريخها مصادرها – مناهجها.	- تطور + المناهج والمصادر - تاريخ +المصادر والمناهج

فإذا كان العنوان هو البوابة التي يدخل منها القارئ إلى عوالم النَّصّ فيروقك الاطلاع عليه ويأخذ بلبك، لذا وجب على المؤلف أن يختار ما يراه مناسبا لجلب القارئ، وإثارة انتباهه، وإغرائه بعبارات محبوكة تخدم الغرض الذي أراده من مُؤلَّفه. وعند تأمل الكلمات المنبرة في العناوين السَّابقة نجدها كالآتي:

العبارة الأولى: (تاريخ) التي توحي بما هو تاريخيٌّ

العبارة الثَّانية: (تطور + المناهج والمصادر)، وتوحيان بما هو تاريخيٌّ وفنيٌّ.

بهذا عرفت قراءة البلاغة العربيَّة أوَّل الأمر منهجين لغويين؛ منهج تاريخيٌّ (تعريفيٌّ- تعليميٌّ) جسَّده كلٌّ من مصطفى المراغي وشوقي ضيف، ومنهج فنيٌّ(نقديٌّ-) جسَّده كلٌّ من بدوي طبانة وعلي عشري الزايد .

6- قراءة التُّراث البلاغيّ وفق المنظور اللسانيّ:

يأخذ هذا النَّوع من القراءة من اللِّسانيات ويقوم على نقد وتقويم للتُّراث البلاغيّ. ومن الأعمال أو المشاريع الرَّائدة في هذا الميدان ، مشروع "حمادي صمود" و"مشروع محمد العمري" :

1-مشروع حمادي صمود: تعدُّ قراءة حمادي صمود في ما يسمَّى بـ(مشروع قراءة) أهمَّ قراءة حاولت أن تدرس النَّصَّ البلاغيَّ القديم من منظور لسانيّ حداثيّ، وهذا المشروع هو في الأصل أطروحة جامعيَّة انتهى من إنجازها سنة(1980) وصدرت ضمن منشورات الجامعة التَّونسيَّة سنة 1981، بعنوان "التَّفكير البلاغيُّ عند العرب - أسسه وتطوره إلى القرن السَّادس (مشروع قراءة)- . ويرى صاحب الكتاب أنَّه أوَّلُ مظهر من مظاهر استقلال التَّأليف البلاغيّ، ربط فيه صاحبه دراسة وجوه البلاغة بجملة من الضَّوابط، سيكون لها بدورها أثرٌ عميق في النُّقاد والبلاغيين المتأخرين[20] . فمحاولة صمود بنيت على ضوء المعطيات اللسّانيَّة الذي حرص فيها على مباشرة التُّراث من منطق التَّفاعل بينه وبين الحداثة قصد فهمه في ذاته، واستجلاء أبعاد النَّظريَّة الأدبيَّة التي يتضمنها، ثم لمحاصرة مظاهر المعاصرة فيه التي يمكن استحضارها اليوم، للمساهمة بها في تغذيَّة النِّقاش القائم، حولنا، في هذه القضايا[21].

وقد جاء هذا العمل بعد القصور الذي صاحب مشروع قراءة التراث البلاغيّ في الحديث ونقصد بها قراءة التُّراث وفق المنهج التَّاريخيّ وهو ما دفع الباحثين إلى إعادة قراءة هذا التُّراث في شكل "مشروع" قصد إيجاد حلول للنَّقص المسجل في القراءات الأولى وهو ما نجده في قول "حمادي

صمود" : << هذه الجهود لا تخلو،على أهميتها من النَّقص، فالآثار التي تروم الإلمام بمختلف مراحل البلاغة نشأة وتطورا واكتمالا قليلة، وما اتجه منها هذه الوجهة باشر المسألة من زاويَّة تاريخيَّة حداثيَّة أضعفت جانب التَّأليف والاستنتاج، كما أنَّها لم تعتن عناية كافيَّة بالأسس التي يقوم عليها التَّفكير في جماليَّة اللغة عند العرب، فجاء جلُّها تاريخا للتَّأليف البلاغيّ لا للبلاغة ولا يخفى الفرق بين الوجهتين >>[22]. وسبب هذا القصور –حسب صمود- يعود من وجهة نظرنا إلى غياب جدليَّة التُّراث والحداثة في هذه المؤلفات وتصديها لدراسة التَّفكير البلاغيّ في الغالب من منظور أحاديّ البعد يقع على هامش النِّقاش الجوهريّ المطروح اليوم في أغلب التَّيارات النَّقديَّة الحديثة والدَّائر حول إمكانيَّة إعادة قراءة البلاغة على ضوء المكتسبات المنهجيَّة الجديدة ولا سيما مكتسبات اللِّسانيات[23]. ولم يكن عمل صمود يسيرا؛ لأنَّه وقع في جملة من الصعوبات منها؛ التَّوفيق بين النَّظرة التَّاريخيَّة التَّطوريَّة، وما تتطلبه من تحليل وتدقيق... والنَّظرة الآنيَّة التَّأليفيَّة التي تقتضي أن يركز الحديث على المواقف البارزة والإضافات الحقيقيَّة[24]. فالتَّوفيق الذي يسعى "حمادي صمود" إلى بلوغه -وهو مطلب في غاية الصُّعوبة- هو:

- دراسة البلاغة العربيَّة بمنهجين مختلفين(تاريخيٌّ | وصفيٌّ) الأوَّلُ غايته إبراز الحقائق، أما الثَّاني فغايته وضع تلك الحقائق في مجهر عدسة المعارف المستحدثة التي نستقيها من اللِّسانيات. فخلفيات المشروع الذي قدَّمه صمود تقوم على ثنائيَّة ضديَّة (التُّراث| والحداثة) وبهما شيَّد مشروعا بلاغيًّا وفق قالب مستحدث، وعلى أرضيَّة متينةٍ وغنيةٍ .

ومن الدِّراسات الهامَّة التي أخذت بالمنظور اللِّسانيّ لإعادة قراءة التُّراث البلاغيّ دراسةُ "محمد العمري" (البلاغة العربيَّة –أصولها وامتداداتها-) وتمَّ طباعتها لأول مرَّة ضمن منشورات إفريقيا الشَّرق سنة 1999. وتعدُّ هذه الدراسةُ نتاجَ قراءة فاحصة لأعمال سابقة، ومزاوجة لمجموعة من الموازنات والرُّؤى، وهو ما نلمسه في مدخل الكتاب؛ حيث يقول البلاغيُّ | اللِّسانيُّ: << لقد قادني البحث في موقع الموازنات الصَّوتيَّة من الرؤية البلاغيَّة، في عمل سابق مطبوع، إلى تكوين تصور عامٍ عن مسارات البلاغة العربيَّة، وخلفياتها الفكريَّة والإيديولوجيَّة، كما قادني إلى اكتشاف الفروق بين المشاريع والمنجزات، وما يؤدي إليه ذلك من تضارب بين منطوق نصوص من المؤلف البلاغيّ الواحد >>[25].

وقد أخذت قراءة العمري طابعا لسانيًّا محضا ويظهر ذلك في إفادته بنظريَّة جماليَّة التَّلقي، التي يقول فيها: << ولا شك أنَّ للمعالجة البنيويَّة اللِّسانيَّة جدوى كبيرة في استخراج الأنساق وتفسير الفعاليَّة، ولذلك حاولنا استثمارها إلى أقصى حدٍّ ممكن، غير أنَّنا حاولنا أن نستغل بعض مقترحات جماليَّة التَّلقي في بعدها التَّاريخيّ >>[26]. ويضيف قائلا: << لقد أسعفتنا هذه المفاهيم القرائيَّة بشكل جليٍّ مثلا في إعادة النَّظر في موقف الدَّارسين المحدثين من تعامل الفلاسفة العرب مع التُّراث الأرسطيّ، خاصَّة كتاب فن الشِّعر >>[27].

ومما تميَّزت به قراءة محمد العمري هو بعدها الشَّمولي الذي لا يقصي مرحلةً من المراحل التي مرَّت بها بلاغتنا العربيَّة؛ أي أنَّها << هي قراءة تركيبيَّة تعتمد النَّظريَّة الشُّموليَّة تفهم السَّابق من اللاحق، واللاحق من السَّابق ولكي تكون مثمرة ينبغي أن تتحوَّل إلى مستوى الهم أو الانشغال الموجه الذي يفسح المجال للتَّحليل والتَّأريخ لسدِّ الفجوات دون أن يكون الخطاب الحديث عائقا يسدُّ الطريق بترسانة من العتاد النَّظريّ الذي يعرقل السَّير بدل أنْ يفتحه >>[28]. بهذا تقوم خلفيات المشروع البلاغيّ الذي قدَّمه محمد العمري على:

خلفيات غربيَّة	خلفيات عربيَّة
بنيويَّة	تراثيَّة
تداوليَّة حجاجيَّة	معاصرة
نظريَّة التَّلقي	||

وعليه تنتمي أعمال العمري إلى تيار الدِّراسات البلاغيَّة التي تريد الكشف عن الدَّرس البلاغيّ العربيّ بالاستعانة بالنَّظريات الغربيَّة، دون قولبة أو تعسف أو ذوبان في الآخر ، فالعمري على وعي بما خلفه السَّابقون من العرب واللَّاحقون، والأمر بالمثل مع القديم والجديد الغربيّ[29]

ليظهر لنا في الأخير الفرق بين القراءتين :
فالأولى قراءة لم يكن همُّها البلاغة كمادة تحتاج إلى دراسة وإضافة، بقدر ما كان همُّها التَّعريفَ بالبلاغة (كما تصوَّرها القدماء) وبرجالها فهي (قراءة في ذاتها ولكن ليس من أجل ذاتها). أي التَّعريف ببلاغة العلماء عبر العصور. أما القراءة الثَّانية فحملت على عاتقها دراسة البلاغة والتَّعريف بها كمادة تحتاج إلى دراسة وإضافة من قبل اللاحق إلى ما رآه من قصور ونقص في عمل السَّابق. فهي قراءة نصفها بأنَّها قراءة للبلاغة في ذاتها ومن أجل ذاتها؛ أي التَّعريف ببلاغة البلاغة ، أو ما نصطلح عليه بفلسفة البلاغة .

7- الخاتمة:

- لا يمكن إنكار ما قدَّمه اللغويون في سبيل قراءة البلاغة العربيَّة، إما قراءة تاريخيَّة أو قراءة لسانيَّة؛ فكلٌّ منهما أضاف شيئا للدَّرس البلاغيّ، إما تعريفا به وبرجاله، أو بربطه باللسانيات.
- إنَّ الكتابة البلاغيَّة التَّاريخيَّة تعاني من غياب إشكاليَّة التُّراث والحداثة. في حين تتجه أغلب التَّيارات النَّقديَّة الحديثة إلى إمكانيَّة إعادة قراءة البلاغة على ضوء المكتسبات المنهجيَّة الجديدة، ولا سيما مكتسبات اللِّسانيات.
- يمكن أن نقسِّم قراءة التُّراث البلاغيّ إلى قراءة في ذاتها ولكن ليس لأجل ذاتها. وقراءة في ذاتها ومن أجل ذاتها. ويمكن أن نصطلح على القراءتين بمصطلحي (قراءة البلاغة)و(و قراءة فلسفة البلاغة)
- إنَّ أنجع منهج - في رأي- لدراسة البلاغة العربيَّة؛ هو المنهج الذي يجمع بين منهجين -رغم التَّناقض الموجود بينهما - ؛ أي المنهج الذي يجمع بين ما هو تاريخيٌّ (لنُعرِّف بتراثنا البلاغيّ وبرجاله) وما هو وصفيٌّ(لربط تراثنا البلاغيّ بالعلوم المستحدثة من جهة، ونضعه في ميزان نقديّ لنعرف ماله وما عليه من جهة أخرى)و الوصول إلى هذا المنهج صعب المنال يحتاج إلى مشروع جماعيّ.

5. قائمة المراجع:

[1] - حافظ إسماعيلي العلوي، اللِّسانيات في التَّقافة العربيَّة المعاصرة(دراسة تحليليَّة في قضايا التَّلقي وإشكالاته)، دار الكتاب الجديد بيروت لبنان، ط1، 2009، ص22.

[2] - ينظر: محمد علي الصلابي، الدَّولة العثمانيَّة أسباب السُّقوط وعوامل النهضة، دار البيارق، ط1، 1999، ص 538.

[3] - رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة"التَّمدن والحضارة والعمران، دراسة وتحقيق محمد عمارة "ج1، ص 15.

[4] - زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربيّ، دار المعارف، مصر ، ص 205.

[5] - حافظ إسماعيلي العلوي، اللِّسانيات في التَّقافة العربيَّة المعاصرة(دراسة تحليليَّة في قضايا التَّلقي وإشكالاته)، ص24.

[6] - إبراهيم مصطفى، إحياء النَّحو، ط2، القاهرة ، مقدمة.
وللاطلاع أكثر عن الأسباب ينظر ص 145.

[7] - حافظ إسماعيلي العلوي، اللِّسانيات في التَّقافة العربيَّة المعاصرة(دراسة تحليليَّة في قضايا التَّلقي وإشكالاته)، ص28.

[8] - عيد بلبع، القطيعةُ المعرفيَّة وسلطة الجذور، جمهوريَّة مصر العربيَّة، ط1، 2009، ص46.

[9] - محمود السَّعران، علم اللغة – مقدمة للقارئ العربيّ-، دار الفكر العربيّ، الإسكندريَّة، 1962، ص07.

[10] - جابر عصفور، النَّقدُ الأدبيُّ، دار الكتاب اللبناني، ط1، 2008، ص 07.

[11] - أحمد مصطفى المراغي، ، تاريخ علوم البلاغة والتَّعريف برجالها، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ط1، 1950، المقدمة.

[12] - المرجع نفسه، ص 07.

[13] - شوقي ضيف، البلاغةُ تطورٌ وتاريخٌ، دار المعارف، مصر، ط9، ص09.

[14] - بدوي طبانة، البيانُ العربيُّ دراسة في تطور الفكرة البلاغيَّة عند العرب ومناهجها ومصادرها، دار المنارة، جدة، ط7، 1988، ص07.

[15] - المرجع نفسه، ص08.

[16] - علي عشري الزايد، البلاغة العربيَّة- تاريخها، مصادرها، مناهجها- ، ص04 وما بعدها.

[17] - المرجع نفسه، ص 157- 158 .

[18] - المرجع نفسه، ص 156.

[19] - محمد العمري، البلاغة العربيَّة أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشَّرق،بيروت| المغرب، ط1، 1999، ص 08.
[20] - علي عشري الزايد، البلاغة العربيَّة- تاريخها، مصادرها، مناهجها-، مكتبة الآداب، القاهرة، ط7، 2009 ، ص13.
[21] - المرجع نفسه،
[22] - حمادي صمود، التَّفكير البلاغيُّ عند العرب- أسسه وتطوره إلى القرن السادس(مشروع قراءة)- ، دار الكتاب الجديد المتَّحدة، بيروت، لبنان، ط4، 2010، ص 11-12.
[23] - المرجع نفسه، ص11.
[24] - المرجع نفسه، ص12.
[25] - محمد العمري، البلاغة العربيَّة أصولها وامتداداتها، ص14.
[26] - المرجع نفسه، ص 09 - 10 .
[27] - المرجع نفسه، ص 10.
[28] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[29] - ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتَّحدة، ط1، 2000 ، ص 243.